يا عم يحيى

بقلم

د. عبد الغفار مكاوى

كانت زوجتى قد أوت الى الفراش منذ لحظات وتركت باب حجرة النوم مواربا . وكنت أسمع انفاسها تتردد وانا جالس فى الصالة اتصفح جريدة وانتظر حتى تسقط من يدى كما هى عادتى كل ليلة فأعرف ان موعد نومى قد جاء وانهض لأغلق النافذة واندس فى الفراش . ولم اكن مستغرقا فى الجريدة التى كنت أبحث فيها عبثا عن شىء يسلينى حين سمعت الصوت . انشق فجأة فى سكون الليل كالسكين اللامعة فانتفضت وطار النوم من عينى :

يا عم يحيى ! يا عم يحيى !

نفس الصوت الذى اسمعه منذ ليلتين . مبحوح ومرتعش ومفاجىء وملسوع ، يتلوى ويستنجد ويبكى ويستغيث . كانه جرح غائر مشقوق فى مكان مظلم عميق ، جرح أصبح له لسان ينزف بالعويل والصراخ كما لو كانت آلاف السياط تنهش جسد صاحبه ، آلاف الأيدى والأقدام تضربه وتلكمه وتركله وآلاف الطيور والوحوش تمزق لحمه وتلغ فى دمه وتحاول أن تبتلع صراخه فيفلت منها ليسترحم الخليقة كلها .

ـ يا عم يحيى ! يا عم يحيى !

لم يكن صوتا . فالصوت الانسانى مهما ارتفعت درجته نحس نحوه بنوع من الألفة . انه لا يفاجئنا ، ولا يروعنا ولا يذهلنا كما فعل . كان حشرجة مخلوق تنهار السماء فوقه ، يرتج الزلزال تحت قدميه ، يحز السيف على رقبته ، يمر جسده على كل آلات التعذيب التى عرفتها العصور المظلمة ،

يسحق تحت طاحونة ثقيلة جبارة .

سقطت الجريدة من يدى ولكن النوم طـــار من عينى الى الأبد . وقفت فى الصـــالة ودقات قلبى ترتفع وترتفع ، يخيل الى أن أفضل وسيلة للهروب من هـــذا الصوت أن أخلع ملابسى وأخرج عاريا من البيت وأجرى فى الشوارع وأنا اضـــع يدى على اذنى . كان يأتى فى البدايةمنخفضا ممدودا ، مميز الحروف ممطوطا فى نهاية كل كلمة . ان الياء فى يحيى تمتد كاليـد المستعطفة الذليلة الباكية ، تعاقب وتشكو وتنتظر . أنه صوت طيب ، مستغيث ولكنه لا يزال يرجو ، ينادى ولكنه يتوقع أن يسمع من يرد عليـــه ، يتوسل ويبكى ولكنه ينتظر ولم ييأس بعد . ثم يزداد حدة ، وتسرع مقاطعه فتصطدمببعضها كعربات القطار ، وترتفع درجته وتزداد تحولا وتوترا وسخطا وعصبية فتأكلالحروف بعضها ، وتقفز واحـدة وراء كل دلالة بشرية لتصبح صـــيحة حادة جارحة مبتورة كسيف يغمد فى الصدر ثم يستل فجأة . ومع كل صيحة تزداد الضربات على باب العمـــارة التى أسكن فيها . وتصبح الضربات هى نفسها صيحات ملهوفة ملسوعة مستغيثة ، والصيحات ضربات ثقيـــلة وخائفـة ومدوية ترج الأبواب والشبابيك .

منذ ليلتين وأنا أسمع هذا الصوت يحشرج وســـط الظـلام والسكون ، والضربات تهز باب العمارة وكان صاحبها يدق على باب مقبرة ليوقظ أصحابها . كان فى الليلتين السابقتين ينطلق فجأة ليستمر لحظات ثم يختفى فجأة كما جاء لا تكاد نفيق من الذهول حتى يذهب . لا بد أن السكان قد ظنوا مثلى أنه أحـد أقارب البواب ، جاء متأخرا فى عز الليل فاراد أن يوقظه من نومه الثقيل ، أو كان صاحبه يعانى من مغص هائل أو يطلب نجدة عاجلة فأفاقوا لحظة من نومهم ثم نسوا الحكاية . أو لابد أنهم ــ حين تكرر هذا الصوت فى الليلة التالية ــ قد عزوه الى كابوس ثقيل كتم أنفاسهم بعد أكلة دسمة ، كابوس ضـــخم أسود كثيف الشعر اشتركوا فيه جميعا وحين صحوا منه كان الصوت قد راح لحاله . ولكنه حين تكرر هذه الليلة على هذه الصورة الذبيحـــة كحشرجة مقتول ، الملهوفة كأجراس عربات الحريق أو الاسعاف الصارخة كبكاء شحاذ تنهشه وحوش الجوع المستنجدة ، كصياحمجرمتوشك أيدى العساكر أن تقبض عليه ــ لعله حين تكرر هذه الليلة على هذه الصورة بدأ ينبهنا الى أنه لابد برغم وحشيته وغربته عن عالم الأرض أن يكون مع ذلك صوتا انسانيا ــ صوت بشر مثلنا لابد على كل حال أن نرى ماذا يريد صاحبه ولماذا يعكر نومنا .

كنت لا أزال أقف فى الصـــالة حين سمعت جارى الأستاذ عادل همام يفتح باب شرفته فى غضب هائل وهو يسب ويلعنويبرطم . وأسرعت أغلق بابغرفة النوم على زوجتى حتى لا تفزع من نومها وفتحت أنا أيضا شباك حجرة الصالون المطلة على الشـــارع العمومى . كان الصـــوت لا يزال يرن فى الآذان وعلى الأسفلت كأنه أوانى نحاسيةترتطم وتظل

الموجات المنبعثة عنها تتسع وتتسع صاخبة مدوية خرســـاء . وسمعت جارى الأستاذ عادل همام ـ الذى كان يبدو فى روبه الأحمر وشعره المنفوش وجسده المكور كانه بصلة افرنجية ـ يشخط قائلا فى صوت كالرعد : يا جدع انت ! يا جدع انت ! دوشتنا الله يدوشك !

ولم يكف الصوت عن رنينه الجارح المعتم الرتيب ، بل ارتفع وعلت درجته وزاد الحاحه وكان سياطا نارية جديدة تلهبه وتغذيه بعذاب جديد : ياعم يحيى ! يا عم يحيى ! يا عم يحيى ! والياء الأخيرة طويلة طويلة تنتهى مقطوعة كانها تقف فى ثم تبدأ « يا عم يحيى » من جديد أقرب الى النشيج اليائس اليتيم المهجور . وزعق جارى ـ بعـد أن سـمع صوت نوافذ اخرى تفتح فى العمارة ، وأنوارا توقـد ، وهمسات تعلو وتتسـاءل وتتشابك :

عم يحيى من ؟ عم يحيى من يا جدع انت ! .

ويظهر أن صاحب الصوت سمع جارى او تنبـه الى انه يقصده بالسؤال . فأوقف ضرباته الهائلة على البوابة وان لم يوقف نداءه المتكرر المستغيث : عم يحيى يا بواب ! يا عم يحيى يا بواب !

فزار جارى ـ ويظهر أنه تلفت حولى ورفع رأسه فلمح الجيران ينظرون من الشبابيك وشعر أنه موكل عنهم فى اخماد هذا الصوت :

ـ البواب اسمه سالم . ليس هنـا أحد اسمه يحيى . ثم ان البواب مسافر عند أهله فى الصعيد .

ورفع رأسه من جـديد الى الأدوار العليا وكانه يتأكد بنفسه أنه ليس هناك بالفعل أحد من سكان العمارة بهـذا الاسم . وسمع الصوت من جديد يتأوه ويئن فى استسـلام وضراعة وكأن صاحبه ـ الذى بدا الآن واضـحا امام الباب بجلبابه الأبيض الطويل وقامتـه النحيلة ورأسـه الصغيرة ـ يسترحم اليد التى تطعنه الطعنة الأخيرة : اصح يا عم يحيى يا بواب ! أنا سايق عليك النبى تصحى يا عم يحيى . وصـاح الأستاذ عادل بعد أن لاحظ وجودى فى النافذة فى صوت أقل حدة وأقرب الى الاقناع منه الى الغضب : يا أخى قلت لك البواب اسمه عم سالم . الله ! كل ليلة تطير النوم من دماغنـا ؟ كل ليلة هوسة وزعيق وخبط على الأبواب ؟

فاقترب الرجل ناحيته ، ورفع رأسه التى كانت الآن تحت شرفته تماما وقال فى صوت كانه دموع تسقط من الحنجرة : والنبى تنادى لى على عم يحيى يا سعادة البيـه . الله يخليك نادى لى على عم يحيى ! .

فسأل الأستاذ عادل وهو يستند بكلتا يديه على سور الشرفة ويمـد رأسه ليتحقق من صـاحب الصوت الذى يخاطبه : عم يحيى من يا جدع أنت ؟

فاجاب صـاحب الصوت : عم يحيى يا سـعادة البيه . عم يحيى الرجل الطيب . سعادتك لا تعرفه ؟ .

فصرخ الأستاذ عادل نافد الصبر : لا اعرفه ولا عمرى شفته !

فعاد الصوت كانه يجفف دموعه ويقول

متعجبا : عم يحيى يا ناس ! من لا يعرفه يا عالم ؟ .

فصاح الأستاذ عادل وقد رأى ان المناقشة طالت أكثر مما ينبغى : قلت لك لا أعرفه ولا عمرى شفته . يا الله روح نام وخلى الناس فى حالها .

فقال الرجل فى هـــدوء لا يخلو من العتاب : أروح يا ســـعادة البيه ؟ الله يســـامحك ! أروح من غير عم يحيى ! يعنى يرضيك والنبى ؟ بذمتك يرضيك ؟

احسست أننى لابد أن اساهم بشىء فى الموضـــوع . فسعلت أولا ثم قلت لجارى : يظهر انه مجنون يا عادل بك . فقال الأستاذ عادل وكأنه يحيينى : معك حق يا أستاذ سامى الظاهر أنه مجنون . ومن بختنا ان جنانه لا يظهر الا نصف الليل . (ثم موجها الكلام الى الرجل) اسمع يا جدع . اذا لم تمش ناديت على العسكرى !

فقال الرجل وهو يدارى وجهه بذراعه فى حركة أقرب الى السخرية منها الى الخوف : العسكرى ؟ ! ويرضيك البهدلة يا بيه ؟ طيب والله وحياة سعادتك انه رجل طيب . رجل طيب ابن ناس طيبين . رجل لا يستحق الا كل خير . العسكرى مرة واحدة ؟ طيب والله أنا حفيت لأجل الاقيه . خبطت على الأبواب . ناديت فى عز الليل . جمعت وعطشت وشفت الممر . تركت أهلى وطلقت امراتى لأجل خاطره . مستعد أبيع هدومى بس الاقيه .

فقال الأستاذ عادل وقد لاحظ أن المناقشة قد طالت وان معظم الشبابيك قد اغلقها أصحابها ومعظم الأنوار قد انطفأت . قال وقد بدا فى صوته انه بدأ يهتم بمعرفة الجواب : طيب لماذا تريده ؟ عم يحيى بتاعك ؟ فقال الرجل : لماذا أريده ؟ طيب اسأل الدنيا عليه . عم يحيى يابيه رجل طيب . رجل صحيح وربنا ساترها معه .

قال الأستاذ عادل وقد بدأ يلاحظ ان الرجل يهذى وأن من المخجل له أن يستمر فى الاستماع اليه : طيب يعنى ضاقت الدنيا فى وجهك . يعنى لا تبحث عنه الا فى شارعنا ؟ وعلى باب عمارتنا ؟ قال الرجل فى استسلام : وحياتك عندى يا بيه انا دخت عليه . من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق قلبت الدنيا عليه . خبطت على الأبواب طردونى . ناديت ما أحد رد على . قلت لهم عم يحيى قالوا لى مات من زمان . قلت لهم ياناس عم يحيى هو عم يحيى — طول عمره رجل طيب ويحب المعروف ولازم ألاقيه . صرخت ضربونى . جريت جروا ورائى سقت عليهم النبى ما حد حن على . بست رجليهم قلعونى هدومى والبسونى القميص . هربت منهم وقلت مصيرى الاقيه . عم يحيى موجود وربنا موجود . قلت يا ولد ان مالاقيته فى السكك والحوارى يمكن تلاقيه عند العمارات والشوارع النظيفة . ربنا كريم ولازم ..

التفت الأستاذ عادل الى وقال : الرجل يخرف . احسن طريقة ندخل ننام . تصبح على خير يا أستاذ سامى . قلت تصبح على خير وأغلقت ورائى شباك النافذة وتهيأت للنوم . ولم تمض لحظة حتى عاد الصوت من جديد . متوسلا فى هذه المرة ومبحوحا ، باكيا أكثر منه مستغيثا ، يائسا أكثر منه ملحا أو عنيدا . وتوالت الضربات الثقيلة ترج البيت كأنها تهز شجرة قديمة من جذورها : يا عم يحيى ! حرام عليك يا عم يحيى ! أنا فى عرضك يا عم يحيى !

وفتح شباك الشرفة المجاورة فجأة فارتطم بالجدران فى غضب وجنون . وسمعت صوت الأستاذ عادل الجهورى يزعق ويسب ويلعن الدنيا ومن فيها : يا شاويش ! يا شاويش !

وفتحت أنا أيضا نافذتى ووقفت انتظر ما يحدث . وما هى الا لحظات

حتى لمحنا الشرطى يتدحرج على أرض الشارع ، تلمع أزرار سترته على ضوء المصابيح الخافتة على الجانبين ، ويختلط كعب حـــذائه بزعيق الأســتاذ عادل بالصرخات الممــدودة التائهة بالضربات التى تنهال على البوابة الحديدية بوحشة الليل وعتمـــة الظلام وأصوات الزجاج والنوافذ التى تفتح واحدة بعد الأخرى بنداءات الغضب والاستفسار والسخرية التى تنبعث منها فى نفس واحدة . وأقبل الشرطى فأمسك بالرجل من رقبته . ولم يكن فى حاجة الى أن يسأل فالجريمة واضـــحة وازعاج الناس فى عز الليل لا يحتاج الى دليل . قال الأستاذ عادل : يا شـــاويش ! أنا عادل همام القاضى . وزميلى الأستاذ سامى عبد المولى مدرس ثانوى . هذه ثالث ليلة يزعجنا فيها . ناقص يوقع العمارة على رءوســـنا . الأولاد فزعت من النوم . سمعنا الخبط قلنا القيامة قامت . أرجوك يا شاويش تعمل اللازم .

قال الشاويش وهو يحيينا فى تكاسل : حاضر يا سعادة البيه أنت وهـو . على القســم قدامى يا بوز القرد . أى خدمة يا بهوات والله . يا بيه من ليلتين سحبته بنفسى على القسم . الشاويش النوبتجى قعد يسأله طول الليل . خطرف ولخبط باس تراب الأرض وقـال بس كلـــه ولا الحبس يا سعادة الشاويش . كله ولا سراية المجاذيب . صعب علينا رميناه فى الشارع وقلنا رزقه على الله . هو حر مع عم يحيى بتـــاعه . رجعت للنكد يا بوز القرد ؟!

قال الأستاذ عادل فى لهجة قاطعة : المهم تعمل اللازم يا شاويش . ثم وهو ما يزال يوجه كلامه الى الشـــاويش : تصبح على خير يا أستاذ سامى !

صـــفع باب الشرفة وراءه . وبقيت أنظر الى الشـــاويش الذى أمسكت يده برقبة الرجل وراح يدفعه أمامه ويتثاءب بصوت عال . واضـــطر أن يوسع من خطواته ليلحق بالرجل الذى كان يهيج امامه كالجمل المسرع فى طريقـــه الى السلخانة . ولم تمض لحظـــات حتى اختفى شبحهما فى الظلام .

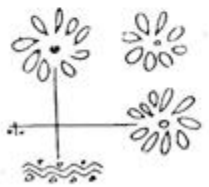

حين اوى الحاج رضوان الى فراشه فى تلك الليلة . لم يكن ما يريده هو النوم كان فقط يود ان ينفرد بنفسه ، ان يفكر وحده بهدوء فى كل ما حدث لقد ظل طوال النهار وجزءا من الليل يستقبل الناس الذين توافدوا على داره من قريته ومن القرى المجاورة ، ولأول مرة وجد نفسه فى موقف من يستمع الى هؤلاء الناس دون ان يكون فى مقدوره ان يقول لهم كلمته لتكون كالعادة الكلمة الأخيرة والحاسمة ، لأول مرة وجدهم يرفضون رأيه رفضا باتا ، ولأول مرة يجد نفسه ضعيفا امام رفضهم ، وفى النهاية موافقا عليه وسعيدا به !

الناس والحقيقة

بقلم : محمد أبو المعاطى أبو النجا

ورغم ذلك ، لم يكد يغلق خلفه باب حجرته ، ويغير ملابسه ، ويطفىء المصباح المعلق على الحائط بجوار سريره ، ويسحب اطراف الغطاء على جسده ، حتى وجد جميع هؤلاء الذين غادروا داره منذ حين يملؤون حجرة نومه ، فلا تضيق بهم الحجرة ولا يضيق هو بهم ، وراح يستمع الى كلماتهم الى بعض هذه الكلمات .. التى كانت تتردد منذ حين ..

« من كان يظن ان يوما كهذا سيأتى ؟

ـ لقد جاء من أجل ان يأخذ الحاج رضوان المكان الذى يستحقه ..

ـ فى الحقيقة هو يستحقه من سنين طويلة !

ـ منذ سنين كانت الدنيا غير الدنيا .

ـ لا يزال الحاج فى احسن صحة وامامه عمر طويل باذن الله .

ـ يا رجال .. لقد كبرت .. البركة فى شباب هذه الأيام (استمع الحاج الى صوت نفسه وكأنه شخص آخر تماما) .

رد شاب من قرية مجاورة : شباب هذه الأيام يريدون ان تعرف انهم لم ينسوا خدماتك للناس .